باب المراسلة والمناظرة

مملكة العذارى

للدكتور احمد زكي الوشاحي

دلتنا فلسفة التاريخ على أن الأمم لا يمكن أن تنهض نهضة صحيحة وتصون بقاءها إلا اذا حققت شرطين جوهريين : أولهما حماية مقوماتها الشخصية التي تكسبها الترابط والقوة ، وهي تشمل التعليم الصادق الملائم ، والصحة العامة والعدالة الاجتماعية ، وتنمية المرافق الاقتصادية وزيادتها . وثانيهما : استيعاب الحضارة العلمية التي هي حضارة انسانية لا يعاديها إلا من يشاء الانتحار أو من يتراق إليه جهلاً ومكابرة .

وبتوفية هذين الشرطين الجوهريين تمكنت الأمم المتمدينة السالفة والحاضرة من بلوغ ما بلغته من عز ومكانة . وباهمالها أو بالتهاون فيهما تعرضت للاضمحلال أو للزوال .

لذلك جهدت - بوصفي أحد حملة الأقلام - في المساهمة الانتاجية نحو هذه الغايات على قدر ما سمح به العمر خلال النصف الأول من هذا القرن : —

١ — كان في مقدمة خدمتي بالتأليف العلمي — إلى جانب التطبيق والعمل — الاقتصاد الزراعي في النحالة والدباغة والصناعات الزراعية ، علاوة على طب العسل والبكتريولوجيا ، لأني رأيت في ذلك خدمة لمقومات هامة للأمة هي اقتصادها العام وزراعتها وصحتها وتنمية ملاحها خاصة .

٢ — خدمة أدب المقال بتآليفي المتنوعة ، وأدب الترجمة الرفيعة بأمثال ترجمتي « المعاسفة » « ورباعيات حافظ الشيرازي » « ورباعيات عمر الخيام » ، اقراراً لايماني بأن اللغة هي من أهم مقوماتنا وأن خدمتها لا تتحقق إلا في خدمتها في جميع أبواب الأدب والعلم ومن هذا القبيل بحوثي اللغوية التي بدأتها (صوت أمريكا) والمصطلحات العلمية الأدبية الكثيرة التي وضعتها .

٣ — خدمة التحرر الفكري والديني والاجتماعي بأمثال محاضراتي ورسائلي الموسومة « مذهبي » « وعظمة الاسلام » « ورسالة محمد » « وعقيدة الألوهة » « ولماذا أنا مؤمن ؟ » « والمال في الاسلام » .

٤ — خدمة النقد الأدبي بدراساتي المتعددة التي امتحنت فيها نفسي أشد امتحان ، فلم أخسر احترام نفسي لنفسي ، وأنشدت مع أستاذي مطران وسط آلامي وتضحياتي : —

وما خفت في آل عتاباً ، وإن قسا ... به الناس ، لكني أخاف عتابي
فما أنا من في كل يوم له هوى ... ولا كل يوم لي جديد صواب
وأنت سعيداً في ركاب ، فكيف بي ... ولي كل حول أخذة بركاب ؟ !
حرام علينا الفخر بالدهر إن نقع ... نسرر معاليه وقوع ذباب
وما كبرياء القول حين تقوستا ... بجاويف أرض في انتفاخ روابي ؟!

٥ — خدمة فن الشعر الذي كان وما يزال أهم فنون العربية ، وخدمة رجاله ، وتحرير الشباب الشعراء والأدباء من سيطرة الحكام والأحزاب السياسية ومن روح الاحتكار والاقطاعية التي أراد أن يفرضها الشيوخ الأنانيون عليهم إلى الأبد ، كما فرضها أمثالهم في ميادين الاقتصاد حتى ما تزال ملكية الأراضي في مصر كما كانت عليها صورتها قروناً عدة قبل الميلاد !

٦ - جعلي السلوك الشخصي التطبيقي معيار الاخلاص للمبادىء ، وارتضاخ جميع المبادىء للاعتبار الانساني أي لاعتبار الانسان الهدف الاسمى للحياة الذي نلمسه ونفهمه . وهذا معناه رفض المساومة في المثل العليا ، والتفاني في [الدكتور أبو شادي]

تشدان الحرية ، والتضحية بكل مرتخص وغال في سبيل الكرامة البشرية . وهذا معناه أيضاً محاربة المهازلة الفكرية ، والوصولية التي عبثت بكرامة الأدب والأدباء وقضت على النزاهة والاخلاص والاجادة ، حتى أسبح اللاعب بالحقائق والتاريخ براعة وفضيلة !

◆

هذا موجز حساب بسيط أسوقه دفاعاً وعتاباً لمن لم يتورع عن انتقاصي ولم يكتف بإغفالي حينما نصب نفسه في مكان القاضي المؤرخ ، فخلط أي خلط وأضحك التاريخ الأدبي مما تسطره الأهواء الجامحة وتمليه الأنانية المريضة أو الحزبية الغاشمة .

لم يقل ناقدي أين العجز في كتابي « مملكة العذارى » ؟ ليذكر أني لم أطلع على المسرحيات المطبعية لهذا الكتاب الذي أصدرته (دار المعارف بمصر) في مايو سنة ١٩٤٨ والذي وضعته

قبل ذلك التاريخ ثلاث سنوات. وليذكر أن شح أنور أرغم الدار على الاختصار في الكتاب دون استشارتي، نظراً لاغترابي عن مصر منذ منتصف أبريل سنة ١٩٤٦. وليذكر أن هذا الكتاب — على صغره — حوى الكثير من الفوائد المستمدة من اطلاعي وتجاربي العديدة، ولذلك إني إقبالاً عليه. وهأنذا أورد فيما يلي مقدمة هذا الكتاب كما كتبت في حينها وقد أغفلها الناشرون للأسف اضطراراً، ويصح أن تعد من الشعر المنثور، وهي:

«هذه صفحات من كتاب الطبيعة اشترك انسانان وعشرة صغيرة في تأليفها..

وقد اعتاد الانسان أن ينفر من معظم الحشرات وان علمته الطفولة حب الفراشات، ولكنه ما يكاد يشب حتى يسخر من صديقات طفولته هذه ويضرب بها المثل في الهرس والحماقة، وحتى الانسان الفنان لا يرى في عبادتها النور وتفانيها في ناره معاني مثالية لطيفة وانما يرى الطيش والجنون!

وفي هذه الصفحات تتجلى صديقة من أخلص صديقات الانسان التي صحبته منذ آلاف القرون، وقدسها الأرباب كما مجدها الأنبياء والمرسلون، واستحقت التنويه بها والتشريف في الكلام المنزل الشريف، ونقشت صورتها على المعابد في طفولة المدنية، واتخذت شعاراً لثروتها في أوجها الحالي، وهذه الصديقة النبيلة الوفية للانسانية أول ما تتجلى في تاريخ الحضارة تتجلى في مصر رفيقة للزراعة كأنها أحد رعاتها ومهندسيها، فهي من مواطنينا الأولين الذين لهم علينا حق الدرس وواجب التسجيل.

تعيش هذه الكائنة اللطيفة في عالم من الأحلام والشعر تستوحيه وتوحي اليه، تحبها الأزهار حبا جماً حتى لتأتمنها على أدق أسرارها، وتكافئها بأحلى سلافاتها التي فتنت بها الآلهة في يونان القديمة شراباً لها ما مسها رفيق ودود وفهمها ورعاها إلا حازته وفاء بوفاء وملأت بيته ذهباً سائلاً وفرشت بساته نضاراً، وما عابها إلا جاحد أو جهول لم يفهم نفسه فشق عليه أن يفهمها وأساء الى نفسه والبها معاً.

وفي هذه الصفحات صورة حافلة لوحدة الطبيعة ولأثرها البالغ في سعادة الانسان بشطريها. نشرتها ذكرى ومتعة وعزاء، وشافني أن أدل عليها من هو مثلي في حاجة اليها».

◆

أما عن الحذف الذي لا بد من استدراكه مستقبلاً اذا كان للكتاب أن يتسم بوسمه الأدبي العلمي الكامل فليس بالامكان التنبيه اليه هنا، وكل رجائي أن يحين وقت يمكن أن يعاد فيه طبع الكتاب كاملاً حتى يكون مثالاً موفقاً للدراسة الأدبية العلمية كما أردته أن يكون، لا مجرد كتاب تعليمي فحسب.